المقتطف

الجزء الأول من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يونيو سنة ١٩٤٧ | ٢٦ رجب سنة ١٣٦٦

مآثر العرب
على الحضارة الحديثة

١ — غلق مدارس أثينا

على كثرة ما وقع في عصر يوستنيانوس من الاحداث فان أعظم هذه الاحداث جميعاً من وجهة النظر العقلية والاجتماعية، حدثان: الاول غلق مدارس الفلسفة في أثينا، والغاء نظام القنصلية الروماني. فان ما خلفت هذه المدارس من الأثر في عالم الفكر وما خلق ذلك النظام من أثر في عالمي السياسة والتشريع، وما ينطوي وراءهما من تقاليد القرون العديدة، يجعل لهما تلك القيمة الكبيرة التي نعزوها إليه. وليس لنا أن نتكلم هنا في شأن نظام القنصلية الروماني، ونقتصر على الكلام في غلق مدارس أثينا.

ظلت مدارس أثينا موضع عناية العقلاء والفضلاء من أمراء الرومان، ومضت مستظلة بحمايتهم أزماناً طويلة. ولقد أنشأ الامبراطور «هدريانوس» في أثينا مكتبة جامعة شيد لها مكاناً خاصاً وزينه بالصور والتماثيل، وسقفها برخام الالباستر الجميل، ولقد أقام ذلك البناء في صورة شرفة واسعة الجنبات يحملها مئة عمود من الرخام الفروجي. وخصص الامبراطوران من آل أنطونين مرتبات سخية للقائمين على هذه المدرسة، فكان مرتب كل أستاذ في السياسة أو الخطابة أو المذهب الافلاطوني أو المذهب المشائي أو الرواقية أو الابيقورية يتقاضى حوالي عشرة آلاف دراخمة (حوالي ٣٠٠ جنيه مصري). [illegible]

أوريليوس أنطونينوس ألغيت هذه المخصصات ثم أعيدت ، ثم أنقصت ثم زيدت ، بحسب أهواء الامبراطور القائم وبحسب الحالة الاجتماعية والفكرية التي تناوبت الامبراطورية الرومانية . واقد بلغ حال تلك المدارس من الاضطراب مبلغاً كبيراً في حكم خلفاء قسطنطين

ولقد نعلم أن أسلحة القوط وجيوشهم قد دمرت الجزء الأكبر من حضارية أوربا . ولكن هذه الأسلحة المدمرة كانت أقل أثراً في هدم مدارس أثينا من انتشار دين جديد في جوف الامبراطورية الرومانية . فان رجال النصرانيـة قد ألغوا العقل وأحلوا محله حكم النقل والايمان المطلق ، وألقوا بأولئك الذين اعتبروهم كفرة أو من أهل الشك الى النيران تأكلهم وتذهب بريحهم . وعمدوا فضلاً عن ذلك الى مجلدات ضخام حملوا فيها على كل ما خلق عقل القدماء من آثار الحكمة والعلم يرمونه بالمروق والارتداد والكفر . ذلك بأنهم اعتبروا تلك الآثار من المصنفات التي تسمم عقول المؤمنين .

على ان البقية الباقية من الفلاسفة الأفلاطونيين حتى عهد يوستنيانوس ، كانوا قد انحدروا عقليًّا الى درجة كبيرة ، حتى انهم مزجوا ذلك المذهب الأسمى الروحاني بكثير من الخرافات وغلفوه بالأساطير والسحر . وفضلاً عن ذلك فان بقاءهم على وثنيتهم في قلب دنيا نصرانية ، كاد ولـد الشك لمقامهم في قلوب الحكام والأمراء ، حتى لقد ظن انهم قد يعملون سرًّا على الاضرار بمصالح الدولة .

بعد موت الامبراطور يوليان بقرن كامل دعي « إفروقلوس » ليلقي دروس الفلسفة في الاكاديميا . ولقد بذل في هذه المهمة أقصى الجهد ، وأثمر أعظم الثمرات ، فتناول في دروسه فلسفة الأخلاق والالاهيات وما بعد الطبيعة ، وكان مما تناوله من البحوث انه وضع ثمانية عشرة قضية منطقية ينقض بها قصة الخلق النصرانية . ولكنه الى جانب هذا كان يدعي القدرة على الاتصال بآلهة وثنية ، ويقول علناً انه محيط بالكثير من أسرارهم . وحدث خسوف في أواخر عمره ، فكان ذلك عنده نذير باقتراب ساعته ، فلما مات جمع بعض تلاميذه كل ما خلفه من أوراق ، وكذلك كل ما كتب حوارته « إزيدور » ، واحتفظوا بجميع ذلك ليكون للاخلاف من بعدهم دليلاً على ما وصل إليه العقل اليوناني إبان ذلك الزمان من انحطاط وتطوح مع الوهم والأساطير .

غير ان « السلسلة الذهبية » ، سلسلة الفلاسفة الافلاطونيين كما كان يدعوهم القدماء ، ظلت متصلة أربعين سنة بعد موت « إفروقلوس » حتى أصدر يوستنيانوس أمره الامبراطوري بأن يصمت آخر لسان تحرك بقضية فلسفية في جنبات المدارس في أثينا ، والاكاديميا على الأخص .

كان آخر هذه السلسلة سبعة من الفلاسفة جمع بينهم العلم وألفتهم الصداقة هم: ديوجينيس (١) وهرمياس (٢) وأولاليوس (٣) وإفرسقيان (٤) ودمسقيوس (٥) وإزيدور (٦) وسمبليقيوس (٧)، لم يرضوا الارتداد عن دينهم الى دين أميرهم فراحوا يهاجرون الى بلاد أجنبية لعلهم يجدون فيها من الحرية ما أنكره عليهم بنو جلدتهم.

كانوا قد سمعوا، أو ترامى إليهم زوراً، إن جمهورية أفلاطون قد طبقت عملياً في بلاد فارس، وأن ملكها الحر الصالح قد أقام العدل وعضد الفضيلة في تلك البلاد الحرة السعيدة. فلما وفدوا إلى بلاط كسرى الذي أشيع عنه أنه فيلسوف وعالم، ألفوا أن مفاسد الدنيا التي خلفوها من ورائهم قد سبقتهم إلى بلاد فارس، وإن دولة كسرى، لم تكن أشرف ولا أفضل ولا أعلم ولا أحكم من عالم الهمج الذي تركوه فراراً من الشرور.

لقد صدمتهم حقائق الحياة الانسانية، فقضوا أعمارهم في سلام، وخلفوا الدنيا بغير جلبة، وانحدروا الى جوف الزمن ومعهم آخر ماخلفت الأكاديميا من الآثار الدنيوية.

وكان ذلك أول اتصال الشرق بعلم الاغارقة الذي نهل منه العرب.

٢ — الحضارة العربية

تفرد العرب في العصور الوسطى بأن كانوا حفظة المدنية والقوامين عليها. كذلك استطاعوا أن يقاوموا تلك الهمجية التي اجتاحت أوربا وهزتها من الأعماق وزلزل قواعدها الثابتة توالي الهجمات الحربية والغازي التي شنتها عليها شعوب الشمال. وفي ذلك الوقت، وفي خلال هذه الفوضى الغامرة، عكف العرب على ثمرات العقل الاغريقي يحيون منه ما أماتت الهمجية. ذلك بأن العرب لم يقنعوا بما اجتمع لديهم من ثروات العالم الذي دان لسلطانهم، بل عمدوا الى سبيل العلم والمعرفة يفتحون بها ما استغلق من قضايا العقل، وما استكن من أسرار الطبيعة.

إن حروب الغزو التي شنها العرب عقيب انتشار الدعوة، وهي حروب قلما تخللها شيء من الاضطرابات المدنية، قد ظلت قائمة خلال القرن الاول من التاريخ الاسلامي متوجة بأعظم الانتصارات. وحتى سنة ٧٦٠ م، وهي تاريخ سقوط الدولة الاموية، لم تظهر في حياة العرب بادرة تدل على أن تلك الفترة الحربية، بما يقع في أثنائها من فوضى واضطراب، سوف يعقبها عهد تكون أجلى مظاهره الحضارية، نهضة عقلية ارتقائية النزعات.

في ظل الدولة العباسية بدأ عهد من الترقي المدني أخرج العرب من خطوتهم التي

Isidor (٦) Damascius (٥) Priscian (٤) Eulalius (٣) Hermias (٢) Diogenes (١)
Simplicius (٧)

عرفوا بها في العصرين الجاهلي والاسلامي الأول ذلك بأن خلفاء العباسيين قد طلوا حركة التثقيف بعنايتهم وأمدوها بسلطانهم فأثمرت سراعاً وآتت أشهى أكلها ، فشحنت الأذهان بمختلف المعلومات ، ونقل إلى العربية مؤلفات وكتابات ، كانت أساساً لأخرى قامت عليها واستمدت منها ، حتى أصبحت العربية مصدر الدرس والبحث في الشرق وفي كل مكان استظل بسلطة العرب.

وللخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يرجع الفضل الأول في حفز الهمم وتنبيه الأذهان الى دراسة العلوم الصحيحة . ولقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، شأن كل الأمم البدوية التي تعيش تحت سماء صافية لامعة النجوم . حفزهم الى ذلك البيئة والضرورة . ولكنهم رغم ذلك لم يكن لهم تقويم زماني يرجعون إليه حوادث أيامهم وحياة رجالهم ودولهم ، وإنما اتخذوا السنة القمرية وسيلة الى معرفة الأشهر، لما للأشهر عندهم من علاقة ببعض التقاليد والعقائد ، ولم يصبح للعرب تقويم يحددأحداثهم إلا من بدء الهجرة . غير أن ذلك الميراث كان سبباً فيما أبدوا في عصور حضارتهم من حب لعلم الهيئة وعكوف عليه .

قال اسكندر فون همبولد :

« كان العرب بطبعهم ذوي كفاءة لأن يؤدّوا دور الوسيط الأمين في تكييف عصر من عصور الحضارة تأثر به كل الأمم التي عاشت في تلك المنطقة الشاسعة الواقعة بين الفرات والوادي الكبير (في الأندلس) والجزء الجنوبي من وسط افريقية . لقد كان للعرب نشاط لا يبارى دمغ عصراً من عصور التاريخ بطابع ثابت لا يمكن محوه . كذلك كان لهم نزعة تسمحية عريقة في الحرية ، مناقضة تمام المناقضة لنزعة اليهود التعصبية ، فاختلطوا بالشعوب التي غزوها من غير أن تعود بهم الذكرى يوماً الى أنهم الفاتحين أو الى تفوقهم القومي أو الى تقاليدهم التي خلفوها من ورائهم في صحاراهم ، بالرغم من تأثرهم بمختلف البلاد التي غزوها والأراضي التي نشروا عليها سلطانهم . وبينما نرى أن السلالات الجرمانية لم تستطع أن تستوعب اللغة الرومندية إلا بعد زمان طويل من هجرتهم ، فان العرب قد تشربوا ، مع دينهم ، لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدّته ولم تتخلخل أصوله ولم تضعف روحه ، حتى بعد أن تجاوبت به أنحاء « رومانس » في بلاد الأندلس .

٣ — التجارة وأثرها في الثقافة العربية

قلما فطن مؤرخو الفكر العربي الى ما كان للتجارة وانتشار المستعمرات العربية من أثر في الثقافة الاسلامية . فان الامبراطورية التي شادها الخلفاء ، باتساع أرجائها وما حوت من ضروب الفن وصنوف الثروة ، وما أظلت من مختلف الأقاليم والأجيال والأمم ، وما

مخطوطة عربية في مختلف العلوم والفنون والآداب . هذا في مدينة واحدة ، فما بالك بما حدث في بقية أطراف ذلك العالم الاسلامي الفسيح .

٤ — من آثار الحضارة العربية

لقد أثبت منصفو المؤرخين للعرب من الآثار الحضارية بضعة نواحٍ كان لها القدح المعلّى في رفع مستوى الانسان إلى آفاق بعيدة المدى قصية الغايات . وإذا كان من الحق أن العرب لم يكونوا أول من ابتكر بعض هذه الآثار المادية ، فلا ينبغي أن ينكر عليهم فضل إنهم كانوا أول من أخرجها من غاباتها وانتزعها من بيئتها ، ونشرها في أنحاء العالم المتحضر . فإن هذه الأمة العربية التي نشأت في محيط صحراوي ، لم تكد تخرج من محيطها وتختلط بآثار الحضارة الرومانية ، وهي وريثة الحضارات القديمة ، حتى أكبت على الزراعة والاستقرار في المدن وفي الأودية الخصيبة ، فرفعت من مستوى تلك الصناعة وأضافت اليها من إبتكاراتها ما جعل من العالم العربي جنة متصلة النواحي ، وجعلت من القفار التي خرجوا المهيع في خلال أربعة قرون ، من القرن الثالث إلى السابع الميلادي ، مراعي نضرة ، ومزارع مثمرة وغابات ملتفة وحدائق دانية الثمرات .

على أنهم إلى جانب ذلك قد استكشفوا في العالم الموات الذي حف بنهضتهم تلك ، ثمرات حضارية ظلت مقصورة النفع على بيئاتها التي نشأت فيها ، فتناولوها بالتهذيب ، ورفعوا من شأنها ، وراحوا ينشرونها أينما حلوا وحيثما كانوا ، وفي جميع الآفاق التي استظلت بحضارتهم الجيدة . من هذه الثمرات الانسانية على كثرتها ، ثلاثة أشياء كان لها أكبر الأثر في رفع مستوى الحضارة في جميع العصور : هي الورق والبوصلة والبارود .

استند بعض المؤرخين على كتابات يغلب إنها مزيفة مدخولة بالتدليس ، تنسب شرف استكشاف هذه الأشياء إلى أهل الصين ، محاولين بذلك أن يسلبوا العرب حقهم التاريخي فيها . يقول المنصفون إن الصينيين عرفوا صناعة الطباعة منذ القرن الثامن . غير ان أسماء جوتنبرج وفوست وشوفر قد انتزعت منهم ذلك الشرف . فاذا كان العرب قد نقلوا عنهم مادة الورق ، وهي من أخص ما يتصل بالطباعة ، ألا يكون من المعقول أيضاً ان يكونوا قد نقلوا عنهم الطباعة أيضاً ؟ وماذا نقول في الذين يدعون بأنهم أخذوا عنهم البوصلة أيضاً وقد ظل أهل الصين إلى سنة ١٨٥٠ يعتقدون إن في القطب الجنوبي اتون ملتهب تتلظى ناره ؟ اما البارود، فإن كان قد ثبت لأهل الصين حقهم التاريخي فيه فانهم لم يستخدموه بنفس الاسلوب الذي استخدمه به العرب .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه في حصار مكة سنة ٦٩٠ م . استخدم المحاصرون نوعاً من القنابر ، وان البارود استعمل في مصر في خلال القرن الثالث عشر لرمي قذائف مسافات بعيدة فتحدث صوتاً كأنه الرعد . ولقد ذكر ذلك أيضاً في وصف وقعة بحرية بين ملك تونس وأمير أشبيلية في القرن الحادي عشر ، وذكر في القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٨) في حصار جبل طارق ، وسنة ١٣٢٤ في حصار بازه . كذلك استخدمه الملك اسماعيل ملك غرناطة سنة ١٣٤٠ ، ولجزائريون سنة ١٣٤٢ ، ويؤخذ من وصف أهل فرارة أن القنابر كانت تقذف بالبارود.

ولقد نقل أهل أوربا هذا الاستكشاف عند احتكاكهم بالعرب ، وأخذت جيوشهم تستخدم المدافع . ولو أن أهل أوربا هم الذين وصلوا الى هذا الكشف ، اذن لعثرنا في آثارهم على أقوال أو اشارات تدل على الخطوات التي تدرج فيها عندهم وتاريخ هذه الخطوات ، ولكن الأمر على العكس من ذلك . فانك مهما استعمقت في بحث تاريخ العصر الذي استخدم فيه أهل أوربا هذه المادة ، فانك لا تعثر على أثر من تاريخ نشوئها عندهم . ومع هذا يحاول بعض المؤرخين نسبتها الى أهل أوربا ، بالرغم من ان العرب استخدموها منذ نهاية القرن السابع الميلادي .

أما البوصلة فليس هناك أي دليل تاريخي على أن أهل الصين قد استخدموها في الملاحة . في حين يتصل بنا أن العرب أخذوا يستعملونها منذ القرن الحادي عشر الميلادي لا في الملاحة البحرية فحسب ، بل في سياحات القوافل عبر الصحراوات ، وفي تعيين سمت القبلة لتعيين اتجاه مكة تعييناً دقيقاً .

وكذلك كان الأمر في الورق . فمنذ منتصف القرن السابع الميلادي (٦٥٠ م) كان ورق الحرير من منسوجات سمرقند وبخارى . وفي سنة ٧٠٦ م فكر يوسف المكي في أن يستبدل الحرير بالقطن في صناعة الورق ، فأخرج بذلك الورق الدمشقي الذي وصفه مؤرخو الافرنج . وفي اسبانيا شاعت صناعة الورق من الكتان والقنب وشيدت لصناعته المعامل الواسعة ، وتنافست في اخراج مختلف أنواعه وضروبه كثير من المدن الاسبانية وفي مقدمتهم بلنسية . وفي القرن الثالث عشر استخدم الورق العربي في قشطالة ، ومن ثم انتقل الى فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا ، ومما يشهد للعرب بمهارتهم في هذه الصناعة ، كشهادة مخطوطاتهم القديمة وقد خلفوها في ورق صقيل متين مزينة بضروب من الزخرفة هي موضع إعجاب العالم الى الآن .

فلا عجب إذن إذا نزع منصفو المؤرخين في العصر الحديث الى الاعتراف بفضل العرب

وفضل تفاقتهم على جميع المرافق الحضارية التي هي أعظم مظاهر المدنية الغربية . فإنه في خلال الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والخامس عشر ، لم تخط الحضارة الغربية خطوة واحدة نحو الامام إلاّ بفضل ميراثهم عن العرب ، سواء أفي الناحية المادّية ، أم الناحية الثقافية، كالفنون والعمارة والهندسة والآداب والعلوم .

٥ — تأثير الحضارة العربية في مدنية الغرب

كتب العالم بايلي إلى فولتير الفيلسوف الفرنسي عبارة لا تزال تروى ويتناقلها المؤرخون فقال :

« إن الأمم الاوروبية بعد أن هاجت في أحضان المسيحيَّة ، قد عادت فاستنارت بغزوات العرب والاتصال بالاغارقة » .

أما المتفق عليه بين ثقات المؤرخين فهو أن أثر العرب في تنوير أوروبا ، كان أمكن وأثبت من أثر الاغارقة . ومن الدلائل القاطعة على ذلك أن العرب هم الذين أحيوا في أوربا فلسفة الاغارقة وآدابهم وفنونهم ، وأعادوا الى العالم الحديث ذكر رجال من عظماء اليونان نسيت أسماؤهم وعفّى الزمن على آثارهم .

ولا خلاف مطلقاً بين المؤرخين في أن العرب هم الذين تبنّوا الحضارة الاغريقية فترجموا عنها الى العربية جلّ الآثار الثقافية التي وصلت يدهم إليها في مختلف فروع المعرفة الانسانية . ولم يقفوا عند ذلك بل شرحوها وأضافوا إليها وعلّقوا وحشّوا من عندياتهم عليها ، فأورثوا الحضارة الحديثة أشهى ثمراتها العقلية والفنيّة ، وكانوا بحق آباء كراماً ، لورثة عاملين ، حفزهم ما رأوا في الآثار التي نقلت إليهم، الى البحث عن الاصول التي ترجم عنها العرب ، وما أن عثروا عليها حتى أكبّ عليها دارسون امتحانوا بالعبر على تفهم آداب هوميروس وفلسفة أفلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من عظماء العالم الاغريقي القديم . ولقد قال المؤرخ « هايد » تولة حق إذ قضى : « بأنّ أكثر ما خلف الفكر اليوناني من الآثار العقلية التي عثرنا عليها في مخلفاتهم ، قد وصلت إلينا أول شيء عن الأمة العربية » .

لقد نقل العرب الى أنحاء أوربا ثمرات العقل الاغريقي ، قبل أن يبدأ الدارسون في أوربا التفقه في درس اللغة اليونانية في أواسط القرن الرابع عشر (١٣٦٠ م) وكان ذلك بمدينة فلورنسا أول شيء ، ثم بعد أن تفرق فقهاء اليونانية في أنحاء أوربا الشرقية بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (١٤٥٣م) . ولا شك مطلقاً في أن كثيراً من الكتب

الاغريقية ، وبخاصــة في العلوم ، قد نقلت أول ما نقلت الى اللاطينية عن المؤلفـات والترجمات العربية .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من المؤلفات الاغريقية الثمينة ، لم يعرف لها أصل إلاّ عا كتب العرب . ولنضرب لذلك مثلاً . في العلوم الرياضية نقل العرب كتاب العالم الهندسي منلاوس الاسكندري في « المستديرات » ، وترجموه بعنوان « كتاب الأكر » ، ومن ثمت نقل الى اللاطينية ، ولولاهم لما عرفنا له أصل ، ولا ثبت خبر . كذلك هم نقلوا الى العربية كتباً ثمانية وضعها العالم ابولونيوس البرغاوي في « القطوع المخروطية » ، نقل منها ابراهام الماروني (١٦٦١ م) الكتاب الخامس والسادس من مخطوطة عربية في مكتبة آل مديتشي في فلورنسا . ولولاهم لما استطاع الأطباء إكمال تعليق جالينوس على مقالة ابقراط في الأوبئة ، إذ عثر على الترجمة العربية في الاسكوريال ، ولما استطاع العلماء أن يعرفوا شيئاً عن مقالة ارسطوطاليس في الأحجار ، لولا الترجمة العربية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس .

إذا تتبّعنا تاريخ المعرفة الانسانيــة ، وعرفنا أن أثر الثقافة الاغريقية قد امتد في الاسكندرية إلى ما بعد الطور الروماني ، لما استطعنا أن ننكر أن العرب هم الذين ظلوا قوّامين على كنز الثقافة فتعهدوه وحموه منذ العصر الاغريقي الى عصر النهضة .

يقول المؤرخ الفرنسي مسيو « ليبرى » : إن العرب اذا استحقوا التمجيد ، فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الاغريقيــة والهندية طوال عصور كفّت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئاً ، وكانت أوربا ما تزال في جهالتهــا ، عاجزة عن أن تحمل الأمانة الثمينة . على أنك اذا أوديت بالعرب من صفحة التاريخ ، إذن لتأخرت النهضة في أوربا بضعة قرون » — ولا شك في أن مسيو ليبرى كان يصبح أقرب الى الحق اذا قال أن تلك النهضة ربما كانت قد اتجهت اتجاهاً آخر غير اتجاهها المعروف ، بل ربما كانت قد سلكت السبيل القويم .

* * *

وفي مجال العلم خاصة بزّ العرب سابقيهم الرومان ، فكانوا بحق ورثة العالم الاغريقي . أضف إلى ذلك أن العرب لم يقنعوا عنــد عظماء الاغارقة مثل أفلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريدس واقليدس وبطليموس ، بل إنهم أكبوا على جماع الثقافة الاغريقية فنقلوا عن شعراء وخطباء وسفسطائيين ، لا ينبغي أن يقوم لهم ذكر الى جانب هؤلاء ، وفي ذلك دليل على أن نهمتهم للعلم والمعرفة لم تكن تعرف حدوداً ، ولا تقف عند غرض عجل أو ذلك .

٦ – الفلسفة الكلامية

عرفت هذه الفلسفة في أوربا « بالفلسفة المدرسية » : Scholasticism ، وهي في الواقع صورة محوّرة من فلسفة الكلام عند العرب .

نعرف أن العرب عكفوا على درس فلسفة المشائين ، أرسطو وأصحابه ، أكثر شيء ، ومن عكوفهم على درس هذه الفلسفة قد ولّدوا فلسفة الكلام في اللاهوت الاسلامي . ولقد يرجع تصوير هذه الفلسفة وتحديد قسماتها الى الجدل الخلاقي الذي قام بين الواقعيين والإسميين من فلاسفة العرب ، وكان الاولون يجرون على مذهب ابن سينا ، والآخرون يجرون على مذهب ابن رشد .

ولقد حقّق المؤرخ الفرنسي « هورو » أن الكندي فيلسوف العرب ، كان المرجع الذي اعتمد عليه الاسكندر الهاليسّي وهنري الغنتي والقديس بونا فنتورا ، بينما اعتمد وليم الاوفرني من تعريفات الفارابي وحدوده ، كما اعتمد منها فنسنت بوفيه والبرت ماغنوس (الكبير) . ومما يدل على أن فلسفة الكلام العربية قد أثّرت في اللاهوت النصراني حقيقة ، أنّ وليم الأوفرني كان يفضّل العرب على الافارقة . لان الافارقة فلاسفة أكثر منهم لاهوتيين ، والعرب لاهوتيون أكثر منهم فلاسفة . ذلك بالضرورة على قدر ميوله ومقتضى نزعته .

على أننا اذا كنا نعتقد اليوم أن فلسفة الكلام ، سواء أعند العرب أم عند الاوربيين ، قد كانت من المباحث العقيمة ، فإنها قد أخرجت للبشرية بضعة مفكرين أحرار ، منهم المعتزلة عند العرب ، وقد ضاعت آثارهم أو تبددت ، ومنهم يوحنا اسقوطس أرغينا ، وبرتجاريوس وإبيلارد ، ووليم أوكام ، وتبعهم وليم هس وسافونارولا ولوثر وبرونو وكامبانلا .

بعد أن وضع العرب يدهم الجدّدة على كل ما خلف الأفارقة من ثمار المعرفة والحكمة ، فثمّروها وأوسعوا من آفاقها في جميع النواحي ، أسلموا بجميع ذلك إلى أوربا . وكانت إسبانيا أول بقعة أوربية تلقت عنهم . ففي القرن العاشر ، ذلك العصر الذي يمثل أقتم دورات الظلام في أوربا ، تراكت في إسبانيا ، على ما يقول المؤرخ « هلّر » كل الثمرات الانسانية ، نمت فيها الدراسات العليا التي رفضها جميع العالم الانساني وأطاح عنها ، حتى في القسطنطينية منذ عصر ليون الايزوري (٧١٧ م) .

وفي الحق أنه منذ القرن العاشر الميلادي أخذ الفكر الأوربي في إسبانيا يتجه نحو سمت آخر. فإذ ذاك ترجم يوحنا الأشبيلي الكتاب المقدس إلى العربية، وقام ألفارو Alvar القرطبي يلوم بني جلدته على أنهم تركوا لغتهم وشريعتهم إلى لغة العرب وشريعتهم، فأخذ الفكر الأوربي في إسبانيا ينمو ويكبر ويشب عن الطوق فظهر هنالك أيطون أسقف فيقي ولوبيت البرشلوني، ورجل يقال له يوسف علّم أدلبيرو رئيس أساقفة ريمس، وكلهم تزوّد في الرياضيات والفلك أخذاً عن العرب وآثار العرب.

٧ — العلوم الرياضية

أمّ اسبانيا في عصر ازدهارها بالثقافة العربية، أولئك الذين تعطشوا للعلم وأمضّهم حب المعرفة. كان من أولئك دارسٌ كبير النفس كبير العقل يدعى غربرط (ولد في أوفرني حوالي سنة ٩٣٠، وانتخب بابا سنة ٩٩٩ باسم سلفستر الثاني وتوفي سنة ١٠٠٣ م) ولقد عرف بمغامراته وعلمه وأدبه وما تحمل من المشاق في سبيل العلم وتحصيل المعرفة، فدرس في مدارس فرنسا وإيطاليا وألمانيا من غير أن يقع على مبتغاه من العلم ومن غير أن يجد فيها ما يشبع نهمته الشديدة للمعرفة، فهبط اسبانيا حيث وجد ضالته من العلوم الطبيعية والرياضية، فنقل منها إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا قدراً كان موضع إعجاب العلماء والمتعلمين ونشره في الأوساط العلمية فكان منهلها العذب وموردها الدافق. على أن روح ذلك العصر لم يكن ليترك رجلاً مثل غربرط من غير أن يدمغه بأسطورة أو يحوطه بخرافة، فقال بعضهم ان هذا الرجل قد حالف الشيطان.

* * *

ينسب إلى غربرط إنه أول من أدخل الأرقام العربية إلى تلك البلاد وانه أضاف إلى الجبر والحساب بضعة مبادىء من وضعه. ويقول المؤرخون انه أول من ركب ساعة تقيس الزمن.

على ان بعض المؤرخين يحاولون أن ينتقصوا الأثر العربي في ثقافة غربرط، فيقول بعضهم إنه لم يذهب إلى قرطبة أو اشبيلية ونحوهما من مراكز الثقافة العربية الكبرى، بل اقتصر على زيارة لمقاطعة قطالونيا توقف فيها بأنحاء ذلك الصقع طويلاً. فمن ذلك كله لم يحل بين المؤرخين ان يثبتوا انه مدين بكل معرفته للعرب، وان معرفته الفذة التي كانت موضع إعجاب معاصريه، لا يمكن بل لا يتسنى أن يكون لها مصدر، على ما يقول الثقة الثبت

« وليم أوف ملمسبوري » غير العرب وانها برمتها منقولة عنهم نقلاً لا تحوير فيه .

ان المثل الذي ضربه غربرط لأهل أوربا كان فذاً فائق الأثر، فراحت جماعة من المتعلمين يؤمون المنهل الذي استقى منه . وكان منهم هرمنوس كونترا كتوس الالماني (المتوفى سنة ١٠٥٤ م) مؤلف كتاب « تأليف البوصلة » ، والانجليزي أدلارد (حوالي ١١٣٠ م) الذي ترجم اقليدس عن العربية ، والايطالي كومبانا نوفارا الذي نشر « نظرية السيارات » ومنهم دانيل مورلي ، واوتو الفريزنجي ، وهرمن الألماني وافلاطون التيفولي . أما جراود الكريموني فقد ترجم في طليطلة نفسها كتاب الخازن وترجم عن ابن سينا والرازي وأبي القاسم والمجسطي لبطليموس ، لا عن الاغريقية، ولكن عن العربية . ولقد جمع جيرارد من علوم العرب في طليطلة كل ما وصل الى يده في الرياضيات والطبيعة والفلك ، وحملها الى أهل أوربا . وفيه يقول مؤرخ ان جيرارد عاش في طليطلة وفيها لمع نجمه .

* * *

يقول المؤرخ مونتكلا : كان العرب حفظة المعرفة وال لفاضهم التجاري ندين بأول أشعة من النور لمعت في سماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، ثم يقول : في خلال ذلك العصر استمد كل الذين برزوا في الرياضيات من العرب وعلوم العرب وافشوا في احضانهم .

ومن الثابت ان كل الذين كثيراً من الأوربيين في العلوم المحضة قبل القرن الخامس عشر لم يأتوا بجديد لم يكن يعرفه العرب ، بل انهم نقلوا عن العرب نقلاً ، وقليلاً ما أضافوا إلى ما نقلوا . على ذلك كان ليوناردو دابيزا الايطالي، وفيتليو البولندي، وريموند لالي الاسباني ، وروجر باكون الانجليزي، ثم أرنو ده فيلنيف الفرنسي ، الذي ينسب إليه انه استكشف كحول الخمر وزيت التربنتين وغيرها من المركبات الكيميائية .

وكان كل ما في أوربا في ذلك العهد من علم الجغرافية قاصراً على ما قال به الادريسي من تقسيم الكرة سبعة أقاليم ، وفي القرن السابع عشر عند ما حقق أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بعض الأخطاء الجغرافية ونشرها ، اضطر ابراهام هنكلمان الى أن يقول : « إن أكثر ما نحن مدينون به من الفضل والتنور ، وما يدين به أخلافنا ، إنما يرجع الى العربية » .

على أن الزيج المعروف الذي ينسب الى الفونسو العاشر وكذلك ما ينسب اليه من كلام في الأفلاك والكرات، إنما هو عبارة عن مجمل مما خلف العرب في علم الهيئة . لقد استمد هذا الملك الذي نعته أهل زمانه « بالعاقل » كل معرفته عن العرب ، ولقد تقدمت على يده

العلوم عما اشتق عن أولئك الأعراب فكان من حلقات الوصل بين نظام بطليوس الفلكي وكوبرنيكوس. على ان الثابت أن الزيج الألفونسي إنما هو استمداد من مختلف الأزياج الفلكية التي خلفها العرب بلا أقل شبهة.

عند ما أراد لويس الرابع عشر أن يقيس الدرجة الأرضية على خط الزوال ليعرف بذلك حجم الأرض، لم يكن يعرف أن الخليفة المأمون قد قام بنفس ذلك العمل قبل خمسة قرون في بغداد.

* * *

يقول بايلي: ان أول خطوة اتخذت في القرون الوسطى نحو احياء العلوم كانت ترجمة كتاب الفرغاني في «مبادىء الهيئة». أما الربي الاسباني «ابن عزرا» وقد نعت حيناً بالكبير ثم بالعاقل ثم بالباهر تقديراً لعلمه واعترافاً بما لكتابه «الكرة» من القيمة العلمية فقد ولد في طليطلة سنة ١١١٩م. وكان من الآخذين عن العرب في علم الهيئة ولقد نشر علم أساتذته الذين تلقى عنهم في أنحاء أوربا. وعن البتاني، أكثر مما كان عن بطليموس، استمد العالم ساكروبوسكو (المعروف باسم يوحنا الهاليودي) مواد كتابه في «الكرات». وعنه نقل المعلق يوهان مولر، الذي علق على كتابات روجيو مونتانوس الفلكي العظيم، أول ما عرف في العلم الأوربي عن علامات محيط الدائرة. وعن الخازن أخذ كبلر فكرة الانكسار الجوي. وربما رجع الى العرب الفضل الذي استحقه نيوتن بكشفه عن نظام تجاذب الأجرام، أكثر من رجوعه الى سقوط التفاحة في بستان. فلا ينبغي للمؤرخ أن ينسى أن فيما كتب محمد ابن موسى[1] شيئاً عن حركة الأجرام السماوية وشيئاً عن قوة الجذب. وفي ذلك ما يكفي.

* * *

٨ — علم الطب

إن تأثير العرب في كل فروع العلوم الطبيعية ومنها العلوم الكيميائية والطبية، لا يقل ثباتاً في التاريخ الانساني، منه في العلوم الرياضية. ولقد كان روجر باكون وريموند لالى

(١) ترجمت كتب محمد بن موسى ونشرت في مجموعة لاطينية معروفة باسم: Bibliot. arab. Philosophorum.

من تلاميذهم في علم الكيمياء ، وكانوا يسمونه « الصناعة الكبرى » ، كما كانا من تلاميذهم في علم العدد والحساب .

ولقد أخذ عنهم ألبرت ماغنوس فلسفة أوسطوطاليس وكان يدعى البرتوس ، وهو البرخت جروتوس أو جروس ، وتدوك في سوابيا سنة ١١٩٣ ، وهو من الانسيكلوبيديين المعروفين ، ومعلم القديس توماس اكويتوس أو توما الاكويني الذي عاه أهل زمانه ، كما نعتوا غربرط من قبل « بالساحر » .

وبعد سنة ١٦٠٠ ميلادية استطاع عالم نابه اسمه « فابريقيوس أكوابندنته » أن يقول في مؤلف له : « يرجع كل علمي إلى ثلاثة رجال سلوس من اللاتين ، وبولص الاجانيطي من الافارقة ، وأبو القاسم من العرب » .

في عالم السماء برز البتاني . وفي عالم الأرض برز الادريسي . أما في عالم الطب فقد برز ابن سينا وابن رشد . وظل أثر هؤلاء قائماً في عالم المعرفة ستة قرون حتى انتهاء القرن السادس عشر الميلادي على أن أثر ابن سينا في عالم المعرفة لم ينته بحلول القرن السابع عشر . فانه في القرن التاسع عشر نفسه ، ظهرت تعليقات على مؤلفاته في لوفان ومونبلييه في فرنسا .

ولقد اعترف بأثر العرب في هذا العلم كل كبار المؤرخين مثل بورهاف وهالـر ، ويقول بروكر : « حتى حلول عصر النهضة العلمية ، ظل ابن سينا ، لا في دوائر العرب فحسب بل في دوائر أوروبا المسيحية ، الحاكم بأمره في عالم العقل » . وفي أوائل القرن الثالث عشر نقل الدكتور البرتغالي بدرو جوليان الذي كان رئيس أساقفة « براغا » ثم بابا باسم يوحنا الحادي والعشرين ، عن العرب كتابه المسمى « كنز المساكين » أو « دواء جميع الأمراض » ، ومقالته في « الصحة » ، ومقالته في « تكوين الانسان » ، حيث احتذاهم ولم ينحرف عنهم قيد شعرة .

ومن اسبانيا خرج جميع أطباء أوروبا اطلاقاً ، وعنهم انتشر حب العلم الصرف وذاعت فوائده .

يقول هالر : ان الأطباء الاسبانيين في أثناء ذلك العصر الذي كان بنو جلدتهم يستردون من العرب أرض اسبانيا شيئاً بعد شيء ، استطاعوا أن ينقلوا الى أهل ايطاليا حب الآداب والعلوم » . وفي اسبانيا درس الأطباء اليهود الذين عرفوا في أنحاء أوروبا بتبريزهم في صناعة شفاء الأمراض ، ومن ثمة نقلوا ثمرات العلم الى جوف أوروبا . ولقد اتخذ الملوك والبابوات

أطباءهم من اليهود . ومن الأمثلة على ذلك أن طبيب الفونسو المقاتل ملك أراجون واسمه بدرو الفونسو ، كان يهوديًا فاستنصر . وكذلك بولس ريقيوس طبيب الامبراطور مكسمليان الأول ، كان يهوديًا وظل كذلك ، وقد درس في أسبانيا حيث ترجم كتاب أبو القاسم وهو كتاب قال فيه « هالر » انه « النبع العام » في صناعة الطب

وقد انحدر الينا ان العرب أجروا كثيراً من العمليات الجراحية لم يكن يعرفها القدماء كما أضافوا الى الصيدلة بضعة مركبات كيماوية ذات أثر كبير في تقدم ذلك العلم .

* * *

إذا أغضينا عن ذلك كله ، قام عندنا دليل آخر على ما كان للعرب في علم الطب من أثر ورثته أوروبا ، في أن جامعة « سالرنو » التي انتشرت براعمها في جميع انحاء أوروبا ، إنما يرجع انشاؤها الى العرب .

يقول مؤرخ : منذ ما استرد روبرت جسكارد النورماني (سنة ١٠٠٠ م) مدينة سالرنو من القوم الذين يقال لهم العرب الذين احتلوا جنوبي إيطاليا أكثر من قرنين من الزمان ، وجد هنالك مدرسة تعلم الطب أسسها أولئك الكفار . ولقد دلته حكمته على أن يحتفظ بها وأن يؤيدها بالمال والنفوذ وجعل رئاستها لرجل يدعى قسطنطين أفريقانوس (أي الافريقي) ، وكان من بربر قرطاجنة أوقعته أسفاره ومخاطراته ، كالادريسي ، في يد النورمانيين بصقلية . وقد أليسه قلنسوة الرهبان في دير جبل كسينو الراهب المشهور دسيدريوس الذي صار فيما بعد البابا فيكتور الثالث . وعند أويته ترجم الى اللاطينية كل ما وقع اليه من كتب بني جلدته في صناعة التطبيب ، ثم ختم أعماله بتأسيس مدرسة سالرنو الطبية واليه يرجع الفضل في وضع كل المبادىء السارية في الطب ومنه أخذت .

وكذلك جامعة مونبلييه الفرنسية . فانها تعود في أصلها الى أهل أراجون (سنة ١٢٠٠ أو حوالي ذلك) الذين أخذوا عن العرب . ففضل ما نقل اليها من العلم يعود الى العرب بطريق غير مباشر . ولقد كان العرب معلمو ذلك الزمان غير منازعين .

اسماعيل مظهر